# مقدمة

تأتي هذه الدراسة لمواصلة المسار الذي بدأناه في دراسة السرد العربي القديم من خلال العمل الأول المتعلق بالخبر في السرد العربي والذي عملنا فيه على مقاربة البنيات السردية البسيطة "الخبر" في التراث السردي العربي، واعتبرنا بأن الخبر هو النواة المركزية في كل خطاب سردي، فهو الأصل الذي تتفرع عنه التجليات السردية المركبة الأخرى. كما توقفنا في دراسة لاحقة عند مفهوم التوالد السردي قاربنا من خلاله أنساق التركيب في السرد العربي مركزين على التجليات الأساسية لهذا التوالد في صورتيه الأفقية والعمودية.

وفي هذه الدراسة نحاول أن نخطو خطوة أخرى إلى الأمام في ملامسة جوانب أخرى من النص السردي التراثي، وتمركز اهتمامنا حول طرق اشتغال التخييل في إعادة بناء النص السردي العربي، خصوصا تلك النصوص التي توحي بطابعها الواقعي التوثيقي، وتكون في بنائها أقرب إلى النص التاريخي منه إلى النص الأدبي التخييلي.

التجليات النصية من هذا القبيل هي كثيرة ومتعددة في التراث السردي العربي، ويصعب مقاربتها جميعا في دراسة واحدة مفردة، ولهذا انتقينا عينة من النصوص اعتبرناها تمثل تنويعا في التجليات السردية التي يتفاعل فيها الواقعي بالتخييل في نسق سردي منسجم يساهم في بناء دلالة خاصة. وحصرنا هذا المتن في ثلاثة نصوص أساسية هي: كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، السيرة النبوية في بعض تحولاتها التاريخية، ثم خطاب الرحلة من خلال الرحلة العياشية.

القاسم المشترك بين هذه النصوص أنها تحكي ما وقع فعلا؛ فابن منقذ وكما يصرح بذلك يدون مراحل من حياته في آخر عمره، وهو بذلك يكون مؤسسا بصورة أو بأخرى لما يعرف الآن بالسيرة الذاتية، وإن كان نص الاعتبار لا

يستجيب لكل مقومات السيرة الذاتية بمفهومها الحديث. وقد أتاح لنا الطابع التوثيقي للنص إمكانية مقاربة اشتغال التخييل إلى جانب الواقعي في نوع من التماهي والتداخل.

أما السيرة النبوية، فهي أميل إلى التاريخ منها إلى التخييل، خصوصا وأنها ترتبط بشخصية لها وزنها التاريخي والقدسي في الثقافة العربية الإسلامية. وقد ساهم هذا الطابع القدسي من خلال الاعتقاد في تفرد شخصية الرسول ﷺ، في تحولات كبيرة في بناء الصورة النموذج له عبر الترهينات المتوالية للسيرة في أزمنة متلاحقة، وهو ما فتح الباب لتسرب تخييلية خاصة للسيرة تدعم قدسية الشخصية وتفردها، وحاولنا إبراز جوانب منه خصوصا في علاقته بالمعجزة.

أما الرحلة العياشية فهي تقترب في بنيتها العامة من نص الاعتبار باعتمادها على ضمير المتكلم، وتدوين مراحل الرحلة ذهابا وإيابا إلى الديار المقدسة. لكن ميزتها تتمثل في التداخلات الخطابية بين السرد والوصف والتقرير، واشتغال التأويل إلى جانب السرد والتوثيق؛ فتفاعل في تكون النص خليط من الخطابات فتح الباب أمام تخييلية خاصة تنكشف من خلال الوعي الحاضر للرحالة – السارد وهو يتذكر وقائع الرحلة في زمن لاحق ويعمل على وضع نسق خاص لها يفي بالشروط المعرفية لتلقيها.

من أجل بلوغ هذه الغايات كان لا بد من وضع أدوات منهجية دقيقة تجعلنا نتحول من البنيوي إلى الدلالي في نوع من الانسجام والتكامل، وكان همنا هو رسم مسار لانفتاح السرديات على حقول معرفية قريبة تطعمها وتمكن الدارس من استغلال نتائج الوصف البنيوي في بناء أنساق دلالية خاصة. وقد وجدنا في بعض المفاهيم التداولية خير جسر للعبور من الأنساق البنيوية إلى الأنساق الدلالية، فوظفناها في نوع من الحيطة والحذر ضمانا لانسجام مسارات التحليل، ولبلوغ الأهداف المتوخاة من ذلك.

بناء على هذا التصور تضمنت هذه الدراسة بابين:

باب نظري، يتضمن فصلين. ركزنا في الفصل الأول على بناء تصور منهجي منسجم يضمن مد الجسور بين السردية والتداولية مبرزين العلاقة التي يمكن أن توجد بين الدراسات السردية والدراسات التداولية. وخصصنا الفصل الثاني لبناء

مفهـــوم التخييل باعتباره يمثل مفهوما مركزيا في المقاربة ونحن نرصد طرق اشتغاله في النصوص.

أما الباب الثاني فأخذ طابعا تطبيقيا وتضمن ثلاثة فصول خصصنا فصلا لكل نـــص مـــن النصوص التي جعلناها متنا للاشتغال، مركزين على الجوانب البنيوية الـــسردية أولا ثم التشكلات الدلالية من خلال رصد المقصدية التواصلية التي يرمي الـــنص تحقـــيقها في علاقته بالمتلقي، وطرق تفاعل الواقعي والتخييلي في ذلك. ثم ختمـــنا بتـــركيب سجلنا فيه أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه المقاربة النصية.

أملـــنا أن نكـــون قد حققنا بعض ما نصبو إليه بقراءتنا لجوانب من التراث السردي العربـــي، وأن يجد القارئ بين سطوره ما يفتح له آفاقا جديدة لتأمل هذا التراث الذي يعتبر جزءا من وجودنا وتاريخنا وكياننا. والله ولي التوفيق.

**د. سعيد جبار**